

كيف نعيش تجربة الامتحان؟

"تكون تجربة التعلم تجربة فعالة في الحقيقة متى تمكنت من القضاء على الأساطير وتمحورت حول الواقع... على عملية التعلم التشديد على أن للمشكلات حلولاً أخرى غير الحلول المسلم بها". (1)

موضوع الامتحان هو موضوع يهم كل الشرائح الاجتماعية والعمرية: موضوع يهم الكبير والصغير، الغني والفقير، الريف والحضر، والمتعلم وغير المتعلم... هو حدث إذا دخل على عائلة أربكها، غير أولوياتها، أرهاقها مادياً ومعنوياً، غير تنظيمها للزمن والوقت وحتى عاداتها الغذائية، فيه عناء للكبير ومحنة للصغير. ألم نسأل أنفسنا يوماً كأولياء وكمرابين: ما هو الامتحان؟ ما المطلوب من أبنائنا زمن الامتحان وماهي الطريقة المثلى لتحقيق هذه الغاية؟ هل يستحق الامتحان كل هذا العناء و"الاستنفار"؟ هل يستحق كل هذه التضحيات؟ ألسنا نبالغ في تعاملنا معه؟ ما هو الدعم الحقيقي الذي يجب أن نقدمه لأبنائنا لئلا يرسخ لديهم ثقافة النجاح في الدراسة والحياة؟

I- صورة الامتحان في المجتمع

تمثل مناسبة الامتحان على المستوى التربوي حدثاً "عادياً"، كما تعتبر نتوياً لمجهود المدرس ومجهود التلميذ خلال فترة زمنية محددة. أما اجتماعياً فتتغير المعطيات إذ يصبح مناسبة "غير عادية" أو "أكثر من عادية"، فهو مناسبة تقترن عادة بمجموعة من الممارسات القابلة للنقاش والمراجعة، منها:

- تحول الامتحان إلى مناسبة تتغير فيها سلوكياتنا الاجتماعية وحتى زيارتنا العائلية بدعوى الاهتمام بأبنائنا أثناء هذه الفترة، وقد يصل الأمر ببعض الأولياء إلى الهوس وحتى المرض.
- يصبح الامتحان مناسبة تجعلنا نفرط في الحرص على أبنائنا. ففي الأيام العادية ربما لا نجد الوقت للاعتناء بأبنائنا مادياً وغذائياً ونفسياً. أما أثناء الامتحان فيتحول التقصير إلى عناية مفرطة والكرم المادي إلى سخاء وفطور الصباح إلى "وجبة ملكية" بدعوى التحضير لهذه المناسبة "الخاصة جداً" والصعبة جداً. يحدث ذلك دون أن ندرك أن الاهتمام والرعاية والعناية والتغذية الرشيدة هي أمور لازمة لأبنائنا في حياتهم اليومية لأن أطفالنا وشبابنا في فترة نمو متواصل (نمو بدني ونفسي وذهني) ويحتاجون إلى هذه الرعاية على مدار العام وليس في مناسبة الامتحان فقط.
- تتحول الحياة في المنزل بموجب الامتحان إلى حالة من "الحصار"، تترافق مع جملة من الممارسات، تنطلق من إغلاق التلفاز ومنع اللعب والترفيه لتصل إلى

فرض نسق معين للحياة على التلاميذ المقبلين على الاختبار بحيث يجبرون على السهر إلى وقت متأخر ويستيقظون في وقت مبكر بدعوى الإعداد الجيد. وقد تمتد ساعات الدراسة على أكثر من عشرة ساعات في اليوم (دراسة في المؤسسات التربوية صباحا ومساء ودروس دعم ودروس خصوصية عند الزوال وبعد المساء)، يتم ذلك دون أن ندرك أن اللعب والترفيه جزء من العملية التربوية واحتياج نفسي عاجل للطفل والشباب، وأن أسابيع الامتحان هي مناسبة للتذكير والمراجعة وليست للتدريس والتدارك.

بهذا الشكل، يتحول الامتحان الدراسي إلى امتحان اجتماعي ويتحول التلميذ إلى "أجير" عند والديه وأداة من أدوات السباق والتنافس الاجتماعي بين الأولياء (لم نعد نسأل عن النجاح بل عن المعدل والشهائد المرافقة له).
لو سألنا أنفسنا:

ماهي آثار هذه الممارسات على صحة الطفل والشباب، النفسية والجسدية وعلى مستقبله الدراسي وعلاقته بالمدرسة وعملية التعلم؟
هل يمكن أن نغير من طريقة حرصنا على أبنائنا بحيث نقدم لهم ما هو مفيد فقط؟
هل يمكن أن نتعامل اجتماعيا مع الامتحان بشكل مختلف بعيدا عن "المبالغات"، بحيث يتحول إلى مناسبة عادية دون أن نفقد الهدف وهو النجاح؟
ماهي الضريبة المادية والنفسية والجسدية التي يجب أن ندفعها لكي تمر هذه المناسبة العادية بسلام؟

هل أن المشكل في الامتحان في حد ذاته أم في طريقة تعاملنا معه؟
هذه مجموعة أسئلة وملاحظات سنحاول الإجابة عنها وتحليلها من أجل تطوير تعامل "أفضل" و "أنجع" مع الامتحان، ليكون النجاح هو الغاية دون أن ندفع ضريبة "غالية" و "مجانية".

II- الامتحان في منظومتنا التربوية

"اتجهت اغلب البلدان في السنوات الأخيرة إلى التحقيق في جهاز الامتحانات الموحدة والمفضية إلى شهادات خاصة في مراحل التعليم الإجباري، واستبدلت ذلك بنظام التقييم المستمر. وفي المقابل طورت هذه البلدان أنظمة للتقييم الدوري ستسمح بمتابعة أداء منظومتنا التربوية وقيمة المكتسبات الخاصة لدى التلاميذ." (2)

الامتحان إذن هو مصطلح يستعمل من طرف الجهات الرسمية وغير الرسمية، ويعني فيما يعنيه تقييم مكتسبات التلميذ المهارية والمعرفية. ونظامنا التربوي في تونس يعتمد على ما يسمى بـ"المراقبة المستمرة" بمعنى أن التقييم يتم على مراحل متعددة ويمتد على فترة زمنية طويلة وليس مرتبطا بمناسبة معينة وهي نهاية كل ثلاثي أو كل سنة دراسية. وأنواع التقييم ووسائله متعددة عندنا منها:

- الاختبار الشفاهي
- التمرين الكتابي الفجئي
- الفروض الكتابية العادية
- الفروض الكتابية التأليفية
- الإشغال التطبيقية أو الموجهة
- الامتحانات أو المناظرات الوطنية

وظيفة التقييم ليست كما نتصورها وكأنها مناسبة أو فرصة للحساب أو المحاسبة على ما تعلمناه. فالعملية لم تعد تقتصر على إسناد علامات أو أعداد (تقييم جزائي)، بل أن التقييم أصبح يعني فيما يعنيه البحث عن مواطن الضعف والقصور لدى المتعلم من أجل تجاوزها (تقييم تشخيصي). إضافة إلى أن هنالك أنواع أخرى من التقييم منها التقييم الذي يحاول تحديد الحاجيات المتجددة للمتعلمين ويحاول تعديل بعضها لتصبح أكثر ملائمة لأهداف الدروس والمعارف المراد تبليغها للمتعلم (تقييم تكويني). بهذا الشكل صار التقييم فرصة تمكن المتعلم من أن يصبح -لا فقط مقتنعا بنتائجه- بل أيضا قادرا على القيام بمجهود لتجاوز نقائصه باستمرار.

إذن علينا أن نغير نظرنا للامتحان وتعاملنا معه، فالإشكال القديمة للتقييم (في الامتحان يكرم المرء أو يهان) قد تغيرت لتحل مكانها أشكال جديدة قائمة على التشخيص وتحديد الحاجيات والمرافقة. لقد أصبح التقييم يخضع للتطوير الذي يحصل في عملية التعليم والتدريس بعد أننا انتقلنا من البيداغوجيا (التركيز على الجانب العلائقي بين المدرس والتلميذ - طريقة تخص تدريس كل المواد)، إلى الديدكتيك (منهج يأخذ بعين الاعتبار المعارف والمواقف والاتجاهات السابقة للمتعلمين على اختلافاتهم) أصبح إذا لكل مادة ديداكتيك خاص بها.

III- كيف نتعامل مع الامتحان اجتماعيا وتربويا؟

يمثل الامتحان موقفا ضاغطا وهذا ما يجعله يترافق لدى المقبلين عليه مع حالات نفسية وانفعالية وجسدية غير معتادة منها:

- الأرق، قلة النوم، فقدان الشهية أثناء وقبل فترة الامتحان
- بعض الآلام الجسدية مثل الصداع وآلام البطن وغيرها

وهي أعراض عادية لأن الامتحان يمثل تحديا لإمكاناتنا، وحين نشعر أننا موضع تقييم من طرف الآخرين نقلق ونرتبك حتى وان كنا كهولا (يمكن أن نلاحظ ذلك عند صعود فنان على الركح لأول مرة أو عند اجتياز امتحان في السياقة...).

1- دور العائلة

يجب أن تكون العائلة جزءا من الحل وليست جزءا من المشكل، فدور العائلة الأساسي في الامتحان ليس تقديم الدعم المادي (السخاء في العطاء المالي- الدروس

الخصوصية...)، ولا تقديم الدعم "الغذائي" (فالطفل أو الشاب يحتاج إلى التغذية الرشيدة باستمرار)، بل أن الدعم الأساسي يجب أن يكون نفسيا (سيكولوجيا). يكون ذلك ممكنا بتوفير جو عائلي يتسم بالاستقرار والشعور بالطمأنينة على مدار العام الدراسي لاستقبال فترة الامتحان بشكل طبيعي. وهنا يجب أن نميز بين الحنان (tendresse) الذي يعتبر نوعا من المعاملة الخاصة المرتبطة بظرفية معينة، والحب (l'amour) الذي يمثل إحساسا قارا مهما كانت الظروف والوضعية. فأولادنا محتاجون إلى حبا أكثر من حناننا.

وإذا كنا فعلا نريد أن نهتم بأبنائنا زمن الامتحان فعلينا القيام ببعض المجهود الموجه والمؤثر معرفيا وذلك بأن :

- نحاول قدر الإمكان تجنب إبداء مظاهر القلق من الامتحان أمامهم لأننا مثلهم الأعلى حتى في الخوف وذلك بتطوير خطاب إيجابي نحوهم لتدعيم ثقتهم بأنفسهم وحثهم على المثابرة
 - نتجنب العقاب والتوبيخ عند حصول نتائج سلبية لأن ذلك يفقد الطفل ثقته بنفسه ويطور لديه حالات من الإحباط والقلق والخوف. إذن "يجب على الآباء تجنب النقد والسخرية من الأطفال، وتشجيع محاولات الطفل لفهم العالم من حوله. والمهم أن يشعر الأطفال بأن والديهم يتقبلانهم حتى في الأحوال التي لا يتمكنون فيها من الأداء الناجح. فيجب عدم ربط الجدارة الذاتية للطفل بالتحصيل والإنجاز... وهذا يجعل الأطفال ينظرون إلى الكبار على أنهم مصدر للثقة والتشجيع وليس مصدرا للنقد والتجريح." (3)
 - لا نبالغ في تقدير إمكانياتهم وتوقعاتهم ونتجنب مقارنةهم بزملائهم مما يجعلهم يستسهلون عملية التقييم لأن " توقعات الوالدين المرتفعة والمبالغ فيها يطور لدى الأطفال خوفا من الفشل ويؤدي إلى الإنجاز المنخفض" (4)
 - نتجنب حرمان أبنائنا من اللعب والترفيه لأنه يمثل جزءا من التربية وعاملا من عوامل تخفيف التوتر
 - نتجنب التركيز بشكل أساسي على الشهادت والترتيب في القسم وان لا نعتبر أن هذه الأمور مرتبطة بمكانتنا الاجتماعية، قد تآثر علينا سلبا أو إيجابا، فالامتحان مرتبط بالمستقبل الدراسي للابن وليس بمكانة الوالدين الاجتماعية.
 - نوضح الجانب الإيجابي في الامتحان على أساس انه فرصة للتقييم وليس مناسبة للعقوبة والانتقام.
- بهذا الشكل تكون العائلة قد قامت بواجبها الاجتماعي والتربوي والتوجيهي دون مبالغت من شأنها أن تفقد التلميذ هدفه ووجهته.

(2)- كيف يتغلب التلميذ على قلق الامتحان

"يشعر الطفل بالتعاسة ويحس بالتوتر الذي يعوق نجاحه المدرسي نتيجة لخوفه الشديد من الأذى الذي قد يصيبه بسبب الشعور المؤلم بالذنب عما يعتقد أنه عمل

خاطئ قام به، ومعظم المخاوف في حقيقتها تمثل اتجاهات مكتسبة بالتعلم، إذ يتعلمها الطفل نتيجة اجتيازه لتجربة أليمة أو إشرافه على موقف كاد يصاب فيه بالأذى، أو مشاهدته لأفراد آخرين وقد لحق بهم الضرر في موقف ما، كما قد يعلم الخوف للطفل عند سماعه للآخرين وهم يحكون تجاربهم المخيفة، وقد تنمي المخاوف لديه إذا صادف موقفا حرجا يكون على غير استعداد لمواجهة. (5)

إن كل شخص يجد في النجاح اعترافا لمجهوده، والفرق بين الناجح والفاشل هو أن الأول عرف الطريقة المثلى التي توصل إلى النجاح وعرف كيف يستثمر وقته وطاقته، ولهذا على كل مقبل على اجتياز الامتحان الإقلاع عن بعض الممارسات التي ترافق فترة الامتحانات. وفي هذا السياق يمكن أن نورد بعض الملاحظات منها:

- ضرورة الالتحاق بفضاء الامتحان في الوقت المناسب، لأن الالتحاق المبكر يسبب القلق والتوتر والمتأخر يؤثر على التركيز ويشوش الأفكار
- تجنب عادة التقصي على الأسئلة المتوقعة والمراجعة أمام مركز الامتحان لأن ذلك عديم الفائدة وكل ما يفعله هو التشويش على معلوماتنا السابقة
- الاستعداد لكل المواد بنفس الدرجة من الجدية لأن كل المواد لها وظيفة في تنمية جانب من جوانب شخصيتنا (الجانب العلمي أو التربوي أو التقني) وتجنب التمييز بين المواد حسب أهمية ضواربها لأن الرسوب قد يكون مرتبطا بجملة المواد ذات الضوارب الضعيفة
- ضرورة استغلال الوقت المخصص للامتحان وتجنب التسرع في الإجابات

بذلك نكون قد قطعنا شوطا جيدا في اتجاه التقليل من القلق على أدينا الدراسي وفي اتجاه النجاح بأقل ضغط ممكن. فالاستغلال الجيد للإمكانيات المتاحة هو الطريق إلى تنمية الفرد لكل طاقاته ومواهبه وأفكاره، وهو بذلك يستثمر كل ما لديه لتحقيق النجاح في الدراسة والحياة.

نشر ثقافة النجاح

لا يتمثل النجاح فقط في الحصول على الدرجات العالية في الدراسة، بل أن النجاح الحقيقي هو شعور ذاتي داخلي ودائم، يدفع الفرد لتحقيق ما يصبو إليه، وهو شعور الإنسان بالثقة في نفسه ورغبته في تنمية قدراته الذاتية الظاهرة والكامنة.

إن الثروة الحقيقية في الإنسان هي عقله وفكره وطاقته ومواهبه التي تمثل الرصيد الذي يستعمله في تحقيق النجاح في الحياة عموما. فالنجاح هو عادة من العادات الهامة والأساسية التي يجب تطويرها وتنميتها بشكل مستمر وخاصة لدى أبنائنا. فلنحرص على تحديد ما ينفعنا ونستغل إمكانياتنا ونطور قدراتنا بالشكل الذي يفيدنا حاضرا

ومستقبلا، فالحقيقة هو أنه لا يمكن القول بوجود إنسان عاجز عن النجاح، فكل منا يتمتع بالقوة بعوامل النجاح. علينا فقط حسن استثمار طاقاتنا الكامنة.

إننا بحاجة إلى أن نبرمج أنفسنا إيجابيا لنكون متوازنين وناجحين ونحقق أحلامنا وأهدافنا في الحياة، وفي استطاعتنا في كل لحظة تغيير ماضينا وصنع مستقبلنا وذلك بإعادة برمجة أنفسنا وحاضرنا دون أن نكثر كثيرا بنقد الآخرين لأن الناجح يتصرف دائما بشكل لا يروق " للفاشلين".

طارق بن الحاج محمد¹

باحث في علم الاجتماع التربوي

المصادر والمراجع

- 1- هارولد.شين: "ماذا تقول العلوم الاجتماعية عن تربية الغد". تأمل في مستقبل التنمية التربوية. اليونسكو 1986 ص 144
- 2- "الإصلاح التربوي الجديد-الخطة التنفيذية لمدرسة الغد 2002-2007 . جوان 2002 وزارة التربية و التكوين.
- 3- الدكتور أحمد محمد الزعبي: " الأمراض النفسية والمشكلات السلوكية والدراسية عند الأطفال". دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. الطبعة الأولى 1415هـ/1994م. ص 226
- 4- نفس المصدر ص 223-224
- 5- ميرل ألوسن: "التوجيه، فلسفته وأساسه ووسائله". ترجمة د.عثمان لبيب فراج ومحمد صبري. دار النهضة العربية-القاهرة مصر. الطبعة الثانية مايو سنة 1978. ص 67.

¹ Email = tarek .hadj @ voila. fr